

إذا) بعد (القسم) في القرآن الكريم دراسة نحويّة دلاليّة

♦ أ.د مهدي صالح سلطان (*)

المقدّمة

النحو في بعض تعريفاته : العلمُ الذي يبحث (في أحوال التركيب والترتيب)^(١)، وغايته معرفة القواعد التي تضبط (كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب ... وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك)^(٢) : أمّا الإعراب - الذي لم يُذكر فيما تقدم من التعريفين السابقين - فهو قسيم التركيب ، ومنهما يتألف النحو، فمضمون القواعد النحويّة الجمع بين التركيب والإعراب ؛ والتركيب نفسه يتفرّع إلى تأليف وترتيب^(٣) .
(وكلمة الشرط : ما يطلب جملتين يلزم من وجود مضمون أولاهما فرضاً حصول مضمون الثانية، فالمضمون الأول مفروض والثاني لازم)^(٤) .

(*) جامعة الإمام الصادق ع - كلية الآداب

(١) إحصاء العلوم ٦١ .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ٢٠٤ .

(٣) الوسائط اللغويّة ٤٦٦/٢ .

(٤) شرح الرضي ١٢٧/٤ .

وقرّر المتخصّصون في حروف المعاني أنّ (إذا): لا يليها إلاّ فعل ظاهر أو مقدر، والعامل فيها الجواب ، وقد تكون ظرفاً لما يستقبل من الزمان ، مجرّدة من معنى الشرط^(٥)؛ في مثل قوله تعالى: (والليل إذا يغشى - الليل ١) ، (والنجم إذا هوى - النجم ١). و(إذا) عند ابن يعيش : (مبنيّة لإبهامها في المستقبل ، وافتقارها إلى جملة بعدها، توضّحها وتبيّنُها كما كانت الموصولات كذلك ... فأما قول الله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى - الليل ١ - ٢) فشاهدٌ على جواز وقوع كلّ واحد من المضارع والماضي بعدها)^(٦)، فإذا ظرف زمان ؛ ومع دلالتها على الظرفية تدلّ على ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى ؛ أمّا موضوع هذا البحث فمراجعة ما قرّره النحاة من تجريد (إذا) بعد القسم للظرفيّة المحضة^(٧) ، وخلوها من معنى الشرط .

وسنعرض تفصيل هذا مقسّمًا على نقاط أساسية ومباحث مختصرة :

أولاً : تركيب (إذا) بعد القسم

(إذا) بعد (القسم) عبارة عن تداخل أسلوبى القسم والشرط ، وهما متلازمة بحثنا هذا، فجملتها مؤلّفة من :

واو قسم + اسم مقسم به + إذا + فعل ماضٍ أو مضارع + الجواب
ففي مثل قوله تعالى : (والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكُم - النجم ١ - ٢) ، المقسم به (والنجم) ، وقد أسند فعل الشرط إلى ضميره ، وتقديره خارج النصّ القرآنيّ : وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [النجم]

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ، فإذا كان النجم يهوى - وهذا هو الثابت المعروف عند المخاطبين - ف (ما ضلّ صاحبكم) ثابت أيضًا ؛ فالشرط يوميّ إلى وجود ظاهرة كونية متحرّكة من ظواهر ما يعرفون ، لا مجرّد الهويّ مرّة واحدة .

والتلازم بين القسم والشرط يُنبّه على وجوب تأمل هذه الظاهرة اللغوية المرتبطة بمظاهر الحركة الكونية ، وكذلك تأمل التلازم اللفظي بين الاسم المقسم به وفاعل فعل الشرط المقدر به ، فـ (إذا) والفعل واقعان بين القسم وجوابه ، والمقسم به هو نفسه الفاعل المقدر لفعل الشرط ، ولو اكتفيّ بالقسم بالنجم من دون (إذا) والفعل ، لما اتضحت حركة الكون في الغياب والظهور .

فالقسم بنجوم السماء لا لأنها محض نجوم بل لأنها دليلٌ من أدلة عظمة الله ومن أسرار عالم الوجود الكبرى ، وأنها من ضمن انتظام قوانين الخلق ، وقد أقسم الباري عز وجل في مواضع أُخر بالشمس والقمر ، والليل ، والنهار ، والصبح ، والضحى وغيرها ؛ فغروب النجم أو هويّه دليل على حدوثه ، والقسم بطلوع الكواكب وغروبها دليل على حدوثها وانتظام هذا الحدوث^(٨) .

قال تعالى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَاهُ تَفْصِيلًا - الإسراء ١٢) ، فلولا ما يحدثه الله سبحانه من آيات ، لم تعلم المواقيت ولا معرفة أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها^(٩) . وسوّغ الأقسام بهذه الألفاظ على توجيهات

(٨) الأمثل ، ناصر مكرم شيرازي ، د . ط ، د . ت ، ١٧ / ٢٠٧ .
(٩) التبيان في أقسام القرآن ١٠٣ - ١٠٤ .

(٥) الجنى الداني للمراي ٣٦٧ - ٣٦٨ .
(٦) شرح المفصل لابن يعيش ٣ / ١٢١ .
(٧) ارتشاف الضرب ٤ / ١٨٦٥ .

نحوية، منها :

١ - حَذَفُ مُضَافٍ مَقْدَّرٍ ، أَيْ : رَبِّ النَجْمِ ، وَرَبِّ اللّيلِ ، وَرَبِّ النَّهَارِ ، وَرَبِّ الشَّمْسِ ، وَرَبِّ الصَّبْحِ ، وَرَبِّ الضَّحَى ؛ فَالتَّقْدِيرُ عَلَى هَذَا : وَرَبِّ النَجْمِ إِذَا هَوَى النَجْمُ مَا ضَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى ؛ وَنَرَجِّحُ تَقْدِيرَ الرِّضِيِّ الِاسْتِرَابَادِيِّ : (وَغِظْمَةٍ) بَدَلًا مِنْ (وَرَبِّ) مِثْلَمَا سَنُوضِحُ .

٢ - تَعْظِيمُ الْعَرَبِ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْقَسَمُ بِهَا ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ ، وَيَنْضَحُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفِكُونَ - العنكبوت ٦١) ، (وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ - لقمان ٢٥ ، والزمر ٣٨) ، (وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ - الزخرف ٩) ؛ الْجَوَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : (وَالْأَمْرُ لِلَّهِ) خَالِقِ هَذَا التَّلَازِمِ ؛ فَهَذِهِ الظَّوَاهِرُ كَوْنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا^(١٠) .

وقد استعمل النصّ القرآني حجاج العرب ومما يعظّمونه ، ومن عامّة المفردات التي كانوا يستعملون ، في بنية قرآنية فاقت ما كانوا يؤلفون ، وفي نظم قرآنيّ جديد ينفذ إلى العقول والقلوب . وكان ترتيب نزول آيات اقتران القسم بالشرط من ضمن السور المكّية ، وكان بالمخاطبين حاجة إلى التوكيد بالقسم بما يحيط بهم من المحسوسات التي تتوقف عليها الحياة واستمرارها [بقدره الله التي لا يقدر عليها أحد] لا الأدلّة والبراهين العقلية المجرّدة ، وفي هذه الآيات تقابل بين النور والظلمة ، وغشية الليل وتجليّ النهار ، وإشراق الضحى وهدوء الليل ، وتألّق الفجر وتنفس الصبح مثلما

^(١٠) البرهان في علوم القرآن ٤١/٣ .

سنعرض ، ويُلحظ في معظم هذه المواضع ظاهرة بيانية تجلو معنويّات الهدى والضلال ، بحسيّات النور والظلمة^(١١)؛ إذ هي صور ماديّة حسيّة معاينة ، تدفع المتأمّل للتفكير في مسببها ودلالاتها المعنويّة ، وكذلك في ترتيبها وانسجامها وتماسك نصوصها ، وارتباطها المتناسب داخل السورة الواحدة وبما جاورها من السور أيضًا .

وَمَا أَقْسَمَ عَلَيْهِ الرَّبُّ فَهُوَ مِنْ آيَاتِهِ ، وَأَنَّ الْقَسَمَ لِكَمَالِ الْحِجَةِ وَتَأْكِيدِهَا ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الْأَقْسَامُ فِي سِيَاقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَكَانَ لِكُلِّ سُورَةٍ سِيَاقُهَا الْخَاصُّ بِهَا وَهَذَا مَا سَنَعْتَنِي بِهِ فِي الْمُبَاحِثِ الْقَابِلَةِ ؛ وَكَانَ هَذَا التَّلَازِمُ - أَوْ «إِذَا» بَعْدَ الْقَسَمِ - قَدْ جَاءَ فِي ثَمَانِي سُورٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ وَتَكَرَّرَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً^(١٢) .

ثانيًا : اختلاف النحويين في توجيهه (إذا) بعد القسم

(إذا) بعد (القسم) تركيب رصده النحاة العرب في القرآن الكريم ، وقد رفضوا أن يكون من باب القسم المتبوع بشرط ؛ لموانع منعتهم من هذا الاعتداد والتوجيه ؛ وقد لاحظوا التعارض بين توكيد القسم وافتراس الشرط ، على الرغم من تمييزهم (إذا) بمزيّات عن بقية أدوات الشرط ، إذ قرروا أنّ (إذا) مدار البحث للمقطوع بحصوله أو لكثير الوقوع ، أو هي للوقت المعلوم ، قال سيبويه: («إذا» تجيء وقتًا معلومًا ... و «إذا»

^(١١) التفسير البياني ٩٧ .

^(١٢) (والنجم إذا هوى - النجم ١) ، (والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر - المدثر ٣٣ - ٣٤) ، (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس - التكوير ١٧ - ١٨) ، (والقمر إذا اتسق - الانشقاق ١٨) ، (والليل إذا يسر - الفجر ٤) ، (والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها - الشمس ٢ - ٤) ، (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى - الليل ١ - ٢) ، (والضحى ، والليل إذا سجي - الضحى ١ - ٢) .

توصلُ بالفعل ، فالفعل في «إذا» بمنزلة في «حين» كأنك قلت: الحين الذي تأتيني فيه آتيك فيه»^(١٣) .
 (وقال أبو عليّ الفارسيّ: ما بعد (إذا) معيّن معلوم، وما بعد الحروف [حروف الشرط] التي جُزم بها في المجازاة ليس بمعين، ولا كائن، لا محالة، كقوله تعالى: (إذا السماء انشقت - الانشقاق ١)، و (إذا السماء انفطرت - الانفطار ١)؛ وأيضاً فإنّ الذي منع من المجازاة به (إذا) أنّه يضاف إلى الجمل التي هي من الفعل والفاعل ... فالجملة بعده في موضع جرّ بالإضافة ... والفعل في (إذا) بمنزلة في الحين ... قال أبو عليّ: يُريد أنّ (إذا) إذا أضيف اختصّ كما أنّ الحين إذا أضيف اختصّ، وإذا اختصّ بَعْدَ من المجازاة)^(١٤).

وقال المبرد: (إنّما منع «إذا» من أن يُجازى بها، لأنّها موقّنة، وحروف الجزاء مبهمة، ألا ترى أنّك إذا قلت: إن تأتني آتك، فأنت لا تدري أيقع منه إتيان أم لا؟ وكذلك من أتاني أتيتّه، إنّما معناه: إن يأتني واحد من الناس آته)^(١٥). (فإذا قلت: إذا أتيتني، وجب أن يكون الإتيان معلوماً، ألا ترى إلى قول الله عزّ وجل: (إذا السماء انفطرت - الانفطار ١)، و (إذا الشمس كوّرت - التكوير ١)، و (إذا السماء انشقت - الانشقاق ١)، أنّ هذا واقع لامحالة)^(١٦).

و(إذا) للوقت عند ابن خالويه: (ومن سورة الليل... والليل: جرّ بواو القسم... إذا يغشى: إذا

حرف وقت غير واجب، ويغشى: فعل مضارع^(١٧). والوقت هو ظرف الزمان عند البصريين، وغير واجب: غير مستحقّ الجواب^(١٨).

ويعرض الرضيّ ردّ شرطية (إذا) في هذا التركيب بسبب تعذر تقدير الجواب: (قيل: ليس في «إذا» في نحو قوله تعالى: (والليل إذا يغشى - الليل ١) معنى الشرط، إذ جواب الشرط: إمّا بعده أو مدلول عليه بما قبله، وليس بعده ما يصلح للجواب لا ظاهراً ولا مقدّراً، لعدم معنى الكلام عليه، وليس ههنا ما يدلّ على جواب الشرط قبل (إذا) إلّا القسم، فلو كان (إذا) للشرط كان التقدير: إذا يغشى: أقسم، فلا يكون القسم منجزاً، بل معلقاً بغشيان الليل، وهو ضد المقصود، إذ القسم بالضرورة حاصل وقت التكلم بهذا الكلام، وإن كان نهاراً غير متوقف على دخول الليل...)^(١٩)؛ وسنعرض ما يخالف هذا التقدير الذي يتمسك بظاهر تأليف الجملة، لا الظاهرة الكونية من الظواهر التي تنتظم مع غيرها.

ثالثاً: الاختلاف في تقدير موضع جملتها

عرّض النحاة بعد ردّ شرطية (إذا) بعد القسم احتمالات لإعرابها، أختصرها فيما يأتي:

١ - أن تُقدّر حالاً: (والنجم إذا هوى): والنجم هاوياً، (والليل إذا يغشى): والليل غاشياً، (والنهار إذا تجلّى): والنهار متجلياً، وهكذا، (فـ «إذا» ظرف زمان، والعامل استقرار محذوف في

موضع نصب على الحال، والعامل فيها «أقسم» المحذوف... وظروف الزمان لا تكون أحوالاً عن

^(١٣) الكتاب ٦٠/٣.

^(١٤) التعليقة على كتاب سيبويه ١٧٥/٢ - ١٧٦.

^(١٥) المقتضب ٥٦/٢، و(الموقت) مصطلح كوفيّ أرادوا منه العَلَمَ المعين، المعروف بالعلمية، أو المحدّد، أو غير المبهم من المعارف والنكرات، معاني القرآن ٧/١، وينظر مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٤٩.

^(١٦) المقتضب ٥٥/٢ - ٦٠.

^(١٧) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ١٠٧.

^(١٨) الكليات، للكفوي ٥٨١.

^(١٩) شرح الرضيّ ٤/١٣٤ - ١٣٥.

الجثث ، كما لا تكون أخبارًا لهنّ) (٢٠) .

٢ - أن تُقَدَّرَ ظرفًا : (والنجم إذا هوى) : والنجم وقت هُويِّه ، (العامل في الظرف فعل القسم المحذوف، تقديره : أقسم بالنجم وقت هُويِّه ... وإذا ثبت أنها مجرد الظرفية ، فليست متعلقة بفعل القسم ...) (٢١) ؛ و (لا يصحّ التعليق بأقسم الإنشائي ، لأنّ القديم لا زمان له، ولا حال ولا غيره، بل هو سابق على الزمان) (٢٢) .

٣ - أن تُقَدَّرَ بدلاً : (والليل إذا يغشى) : (وهي مجرورة المحل هاهنا لكونها بدلاً من الليل ... والتقدير : أقسم بالليل وقت غشيانه ، أي بوقت غشيان الليل ...) (٢٣) . و («إذا» بدل من المقسم به مخرج عن الظرفية ، أي وقت غشيانه ... وليس ببعيد أن يقال : هو ظرف لما دلّ عليه القسم من معنى العظمة والجلال ، لأنّه لا يُقسم بشيء إلاّ لحاله العظيمة) (٢٤) ؛ لكنّ الجمهور لا يجيزون خروج (إذا) عن الظرفية .

٤ - أن تُقَدَّرَ مفعولاً بها متجردة عن الشرطية والظرفية (لمجرد الوقت من دون تعلق بشيء ... وحصول القسم من غير تقييد ... وقد تفارقها الظرفية ، مفعولاً بها) (٢٥) .

رابعاً : توجيه المحدثين لـ (إذا) بعد القسم

ذكر الدكتور سمير ستيتية - من المحدثين - أنّ (إذا) في هذا الموضع قد أفرغت من دلالتها الشرطيّة، وهو ما أسماه بالشرط المفرغ ، وانصرفت دلالتها إلى الظرف المحض (٢٦) ، ونجد

أنّ الدكتور لم يخالف القدماء إلاّ في العبارة . أمّا الأستاذ كاظم الراوي فيرى : (أنّ (إذا) بعد القسم في هذه الآيات إنّما تدلّ على استغراق الزمن، وكأنّ القول : أقسم بهذه الآيات التي يتجدّد ظهورها كلّ حين أمام أعينكم ... آيات الله الدالّة على كمال قدرته ، فإنّ ما يصنعه البشر ممّا وصل الغاية في الدقّة لا يلبث أن يخلق ويبيد ، ولكن آيات الله التي مضى عليها الزمن تتجدّد كما هي ، وسوف تبقى كذلك حتى يقوم الناس لربّ العالمين) (٢٧) .

وهذا هو الذي نرجّحه ، أي أنّ تبقى جملة (إذا بعد القسم) على شرطيتها ، استناداً إلى دلالة مجموع نصوص هذه الآيات في التقدير للجواب ؛ وكذلك إذا استعنا بمنهج تحليل نحو النصّ ، الذي (يعنى بتقديم تفسير أرحب ورؤية أكثر إقناعاً ممّا هي عليه في الأنحاء التقليدية «نحو الجملة» ، إذ يهتم بما هو أكثر عموميّة وشموليّة فيما يرتبط بالأشكال التي يتيحها النصّ) (٢٨) .

وينصر هذا الذي نرجح القول بـ (تفسير القرآن بالقرآن) : (فما أُجْمِلُ في مكانٍ فقد فُصِّلُ في موضعٍ آخر) (٢٩) ، واستيضاح معنى الآية يتحقق من نظيرتها بالتدبّر المندوب إليه من القرآن نفسه، الذي (ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ...) (٣٠) .

وقد قيل (ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة ، متسقة المعاني منتظمة

(٢٠) البرهان ٤ / ١٩١ .

(٢١) المصدر نفسه ٤ / ١٩٣ .

(٢٢) مغني اللبيب ١ / ١٠٠ .

(٢٣) البرهان ٤ / ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢٤) شرح الرضي ٤ / ١٣٥ .

(٢٥) البرهان ٤ / ١٩٣ ، ١٩٥ .

(٢٦) الشرط والاستفهام في الأساليب العربيّة ٤٥ .

(٢٧) أساليب القسم في اللغة العربية ٥١٩ .

(٢٨) نحو النصّ بين الأصالة والحداثة ٤٠ - ٤١ .

(٢٩) البرهان ٢ / ١٧٥ .

(٣٠) تحليل لغة القرآن ٥٢٠ ، وفي شرح نهج البلاغة من

كلام أمير المؤمنين (كتاب الله ... ينطق بعضه ببعض ،

ويشهد بعضه على بعض) ٨ / ٣٩٦ .

المباني^(٣١) .

صَلَّ صَاحِبُكُمْ

وهي إحالة على خلق الله وتقديره ، الذي يقره المخاطبون ويعترفون به، مثلما عرضنا سابقاً .

سادساً : (إذا) بعد (القسم) في سورة (المدثر)
(كَلَّا وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ - المَدَّثَرُ ٣٣ - ٣٤)، فالقمر من دون اقتران بـ (إذا) ، وأما الليل فمقترن بـ (إذا أدبر) : أي نهايته، والصبح مقترن بـ (إذا أسفر) ، أي ظهر وتجلّى ؛ والجواب : (كَلَّا إِنَّهَا لِأَلْحَدَى الْكُبْرِ - المَدَّثَرُ ٣٥) ، الكُبر جمع الكبرى ، كناية عن نار جهنم^(٣٦) ؛ وكان الحلف بثلاثة أمور : متتابعة زمانياً إشارة إلى تكامل طلوع الصبح ، استعارة لوضوح الأمور ، (كأنه يريد إثارة الفكر الإنساني، وتوجيهه صوب الكواكب السيارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية ، ليُنَأَمَلُ أمرها وقدرة خالقها وعظمتها سبحانه وتعالى^(٣٧) . إذ إنَّ القسم كان بدوال الظواهر الكونية الزمنية في السورة: (القمر وإدبار الليل وإسفار الصبح وتجليه)، في ردِّ مفتريات الوليد بن المغيرة المخزومي مثلما يذكر أهل التفسير^(٣٨) ، فقد جاء على لسانه في هذه السورة : (إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ - المَدَّثَرُ ٢٥)، ذلك بعد الوصف التفصيلي لتردده وتجبره وتهافته الذي ترسمه السورة ، وتعرض في الوقت نفسه عقوبته في قوله تعالى : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصَلِّيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ

خامساً : (إذا) بعد (القسم) في سورة (النجم)

أقسم الباري عز وجل لإثبات صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، في قوله تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ - النجم ١ - ٢) . وتُسَمَّى العرب الثريا نجماً وإن كانت في العدد نجومًا ، و(إذا هوى) : إذا غاب وسقط ، و(ما ضل صاحبكم) جواب القسم^(٣٢) .

والنجم هنا في الأصل الكوكب ، ثم نقل إلى الوقت المضروب المعين إذ يتعرفون الأوقات بالنجوم، والنجم الثريا ، والمراد طلوعها صباحاً في أول الصيف وذلك عند اشتداد الحر ببلاد الحجاز وابتداء نضج الثمار^(٣٣) .

إذ كانوا يُوقَّتون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول ونضج الثمار^(٣٤) .

وبحسب مواقعها يمكن للإنسان التائه معرفة موضعه من الأرض عند النظر إلى النجوم كالقافلة في الصحراء أو السفينة في البحر، قال تعالى : (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ - النحل ١٦) . وقوله جل جلاله : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ - الأنعام ٩٧) . أمَّا في سورة النجم فـ (كأنه قيل والنجم الذي يهتدي به السابلة إلى سواء السبيل (ما ضل صاحبكم) أي ما عدل عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة)^(٣٥) .

والتقدير النحوي لجملة هذه الآية :

وعظمة النجم إذا هوى النجم - الذي تعرفون - ما

^(٣١) الإتيان ٣ / ٢٧٢ .

^(٣٢) عمدة القاري ١٩ / ١٩٥ .

^(٣٣) المصدر نفسه ١٢ / ٤ .

^(٣٤) التحرير والتنوير ٢٧ / ٩٧ .

^(٣٥) تفسير أبي السعود ٨ / ١٥٤ .

^(٣٦) البحر المحيط ٨ / ٣٧٨ .

^(٣٧) الأمثل ١٩ / ٤٦١ .

^(٣٨) معاني القرآن ٣ / ٣٠١ - ٢٠٢ .

مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ - المدثر ١٨ - ٣٠) ؛ وقد تكرر الردع بـ (كلاً) قبل التركيب وفي جوابه ، للإشارة إلى كمال القدرة ووفور النعمة في ردِّ مُفْتَرَى الْمُفْتَرِي .

وواضح (أنَّ القمر في الليل الدامس يهدي السائرين ، كما أن الصبح وطروء النهار يبدي الظلام ويظهر النور، فناسب أن يحلف سبحانه بأسباب الهداية ، ومعادن النور ومظاهره ، بغية إثبات أنَّ القرآن لإحدى المعاجز الكبرى التي تهدي البشر إلى سبيل الرشاد)^(٣٩) .

وابتداءً بالقسم (بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها مما لا نراه من الملائكة وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار وكل ذلك آية من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته ومن تدبَّر أمر هذين النورين العظيمين وجدتهما من أعظم الآيات ... بتسخير مسخر وأمر أمر وتدبير مدبر)^(٤٠) .

والتقدير خارج النصِّ القرآني : والليل إذا أدير الليل والصبح إذا أسفر الصبحُ : (إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبْرِ) ...

سابعاً : (إذا) بعد (القسم) في سورة (التكوير)

جاء بـ (إذا) بعد القسم مرتين ، لكن بعد تكرار الشرط من دون قسم اثني عشر مرة ولجميعها جواب شرط واحد ، في قوله تعالى : (إِذَا الشَّمْسُ

كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضِرَتْ - التكوير ١-١٤) ؛ كل ذلك إشارة إلى فناء الدنيا وانقطاع نشأتها وبروز مكانها وخروج هويات ما فيها إلى النشأة الآخرة^(٤١) ، هي (ثنتا عشرة خصلة : ست منها في مبادئ قيام الساعة قبل فناء الدنيا ، وست بعده ، لأنَّ المراد : زمان متسع شامل لها ولجأزة النفوس على أعمالها)^(٤٢) ؛ ومجموع هذه الموارد كناية عن التغيير والزوال وتعطيل ما في هذه الدنيا ، لينتهي الأمر بالمساءلة الكبرى والنتيجة العظمى أي معرفة ما قدم الإنسان ، وما عمل من خير أو شر ، في قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضِرَتْ) ؛ فكان هذا هو جواب جميع ما تكرر من الشرط ، أي علمت ما أحضرته عند نشر الصحف من صحائف الأعمال^(٤٣) .

ثمَّ جاءت (إذا) بعد القسم ، في قوله تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ - التكوير ١٧ - ١٨) ، فالجواب والغاية : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ - التكوير ١٩) ، ذلك لردِّ مدعيات المخاطبين ، في قوله تعالى : (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ... - التكوير ٢٢) ، يلحظ الشدة مع تكرار الشرط في الآيات الأولى السابقة لتركيب (إذا) بعد القسم ، أمَّا معها فالحال مختلف ؛ فإذا كانت حقائق تتابع

^(٤١) أسرار الآيات ٩٣ .

^(٤٢) تفسير كنز الدقائق ١٥٢ .

^(٤٣) فتح القدير ، للشوكاني ٣٩٠/٥ .

^(٣٩) الأقسام في القرآن الكريم ١١٧ .

^(٤٠) التبيان في أقسام القرآن ١٠٣ - ١٠٤ .

الليل والنهار مما تجدون من حقائق، وأن قدرة الله على فناء الدنيا والحساب في الآخرة، فهذا الخطاب من الله جلّ وعلا.

والتقدير خارج النصّ القرآنيّ :

وَعَظْمَةُ اللَّيْلِ إِذَا عَسَعَسَ اللَّيْلُ ، وَعَظْمَةُ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ الصُّبْحُ ... ترون آيتيهما : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) .

ثامناً: (إذا) بعد (القسم) في سورة (الانشقاق)

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ والقمر

إذا اتسق، لَتَرَكَّبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ - الانشقاق ١٦ -

١٩) ، أقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل أحدها

الشفق ، وهو الحمرة بعد غروب الشمس، وما

وسق أي وما جمع وما ضمّ ومما كان منتشراً

بالنهار، والقمر إذا اتسق إذا استوى وتكامل وتمّ

ليلة البدر، و(اتساق القمر) اكتمال نوره عندما

تكون الأرض بين كل من الشمس والقمر، وعلى

ذلك فإن أهل الأرض يرون القمر بدرًا كاملاً،

والوسق الضمّ والجمع وفلان متسق أي مجتمع

على أمر^(٤٤)؛ و(لَتَرَكَّبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) ، جواب

القسم ، والطبق : الشيء ، أو المنزلة ، أو الحال

الذي يطابق آخر.

(ومناسبة الأمور المقسم بها هنا للمقسم عليه ،

لأنّ الشفق والليل والقمر تخالط أحوالاً بين الظلمة

وظهور النور معها ، أو في خلالها وذلك مناسبة

لما في قوله : «لَتَرَكَّبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ» من تفاوت

الأحوال التي يختبئ فيها الناس يوم القيامة أو في

حياتهم الدنيا^(٤٥) . (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا

وَسَقَ والقمر إذا اتسق) .

والتقدير خارج النصّ القرآنيّ :

والقمر إذا اتسق القمرُ : لَتَرَكَّبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ .

تاسعاً : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الفجر)

(وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا

يَسِرُّ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ - الفجر ١ - ٦) ، تكرار أربعة

أقسام ، وكان تركيب (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ) الخامس

بعدها ، ويسري : يمضي، حتى ينقضي بالضياء

المبتدئ ، وسرّ الليل مضيّه وإدباره، من سرى

يسري ، وحذف الياء - يسر - لأجل توحيد فواصل

الآيات ، فالليل ظرف والساري غيره ، ولكن الآية

نسبت الفعل إلى نفس الليل فكأنّ الليل موجود

حقيقي له سير نحو الأمام فهو يسير إلى جانب

النور، فالله سبحانه حلف بالظلام المتحرك الذي

سينجلي إلى نور النهار. ويستعمل الفعل في السير

في الليل ، كما في قوله سبحانه : (سُبْحَانَ الَّذِي

أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَى - الإسراء ١) ، زيادة على ما في الليل من

عظائم البركات التي لا تقوم الحياة إلا بها .

(والليل إذا يسر) المتضمن لآخر الصلوات وإن

أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر

وليلته التي هي ليلة عرفة فتلك الليلة من أفضل

ليالي العام ، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي

هو أفضل الأيام عند الله كما ثبت عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال أفضل الأيام عند الله يوم

النحر، وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله

صلى الله عليه وسلم (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ

وَرَسُولُهُ) ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا

يطوف بالبيت عريان ، ولا خلاف أن المؤذن أذن

بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة ، وذلك بأمر

رسول الله صلى الله عليه وسلم امتثالاً وتأويلاً

للقرآن وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك

والصلوات وهما المختصان بعبادة الله والخضوع

^(٤٤) الدر المصون ٦/٤٩٩ .

^(٤٥) التحرير والتنوير ٣٠/٢٠١ .

له والتواضع لعظمته)^(٤٦) .

ويعود سبب تعاقب الليل والنهار إلى دوران الأرض حول الشمس ، فبسبب كرويتها لا تضيء الشمس سائر جهاتها في آن واحد بل تضيء نصفها فقط ويبقى النصف الآخر مظلمًا حتى يحاذي الشمس بدوران الأرض ، فيأخذ حظه من الاستنارة ، وتتم الأرض هذه الدورة في أربعة وعشرين ساعة . ففي تسييره على المقادير المرتبة ، ومجيئه بالضيء عند تقضيئه في الفصول أدل دليل على أن فاعله يختص بالعز والافتقار الذي يجلب عن الأشباه والأمثال .

و(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ - الفجر ٥) أي : فيما أقسمت به من هذه الأشياء)^(٤٧) ، والمعنى أن في ذلك الذي قدّمناه قسماً كافياً لمن له عقل يفقه به القول ، ويميّز الحق من الباطل ... ولا يقسم إلا بما له شرف ومنزلة ؛ وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدلّ عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنة ... وحذف الجواب والإشارة إليه عن طريق التكنية أوقع وأكد في باب الإنذار والتبشير)^(٤٨) .

تقول بنت الشاطي : (نطمئن إلى أن آيات القسم في سورة الفجر قد تمّ بها المقصود من اللفت إلى المقسم به ، بما يغني عن تأويل جواب محذوف أو غير محذوف)^(٤٩) .

وقد اختلفوا في تقدير جواب الأقسام : وصلاة الفجر ، أو وربّ الفجر ... ليُجازين كلَّ أحدٍ بما عمل ، (وقدره الزمخشري : ليُعذبن ، وقال ابن الأنباري الجواب أنه قوله : «إن ربك لبالمرصاد» ،

والذي يظهر أن الجواب محذوف يدلّ عليه ما قبله من آخر سورة الغاشية وهو قوله «(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ - ٢٥ - ٢٦)»^(٥٠) . وعلى العموم فتقدير الجواب خارج النصّ : وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَّ اللَّيْلُ : لِيَجَازِينَ ...

عاشراً : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الشمس)
يُلاحظ تقابل ثنائيات : (الشمس والقمر) و (النهار والليل) و (السماء والأرض) في سورة الشمس: في قوله تعالى : (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ حَابَّ مَنْ دَسَّاهَا - الشمس ١ - ١٠) .

ففي آيات سورة الشمس سبعة أقسام بمخلوقات عرّ وجل : وهذا هو التكرار الأوسع ، لأنّ السورة تتعرض لموضوع عظيم عظمة ظواهر السماء والأرض ؛ فالمقسم به يرتبط بالنظام السماوي والأرضي الذي يوضح قدرة الخالق وتدبيره المطلق ؛ وأثر الشمس في الموجودات الحيّة على ظهر البسيطة معروف ، إذ القسم بهذه الظاهرة السماوية المهمة في حياة البشر ولجميع الأحياء ، فالنهار رمز الحركة والحياة ، وكلّ الفعاليات والنشاطات ، وأكثر مساعي الحياة تتم عادة في ضوء النهار ؛ ولولا ظلام الليل لما كان هناك هدوء واستقرار ، لأن استمرار سطوع الشمس يؤدي إلى ارتفاع في درجة الحرارة وتلف كل شيء ، ومعها لا يبقى موجود على قيد الحياة ، لكن في دوام الليل تنخفض درجة الحرارة حتى يتجمد كل موجود لو قدر له أن يكون هناك .

^(٤٦) التبيان في أقسام في القرآن لابن القيم ١٩ .

^(٤٧) الكشاف ١١٩٩ .

^(٤٨) الميزان ٢٠/٢٥٣ .

^(٤٩) التفسير البياني ١٣٦ .

^(٥٠) الدر المصون ٦/٥١٧ ، والبحر المحيط ٨/٤٦٦ .

و(أقسم بالمصنوع الدال عليه وبصنعتة الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة ولهذا سلك طائفة من النظائر طريق الاستدلال بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ - آل عمران ١٩٠) (٥١).

وكان تتابع الأقسام :

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ..

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ..

أي ستة منسجمة ، ثم القسم السابع المختلف :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ..

ومجموعة جواب القسم هي :

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

ويبدو أن اعتراض (ونفس وما سواها فألهمها ...) قبل الجواب ، فصارت قد أفلح تابعة لقوله: فألهمها ، وكفى من جواب القسم ، فكأنه قال : والشمس وضحاها لقد أفلح ، وتنكير (نفس) للتفخيم ، فهو الذي سوى النفس وخلقها ، فعدل خلقها ، فبين لها ما ينبغي أن تأتي أو تذر (٥٢) ، فالجواب للشرط لا للقسم بدلالة الفاء ، وامتنع تكرار الفاء مع (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) .

(٥١) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ، دار الفر ،

د ت ، ١٣ .

(٥٢) جامع البيان للطبري ٢٣/١٤٣ - ٣٠/٢٦٨ .

(والشمس وضحاها - الشمس ١) ، (فإن قيل أين جواب القسم ؟ ... قال الزجاج وغيره: إنه قوله تعالى : (قد أفلح من زكَّاهَا - الشمس ٩) ، وحذفت اللام لطول الكلام ، وقال ابن الأنباري : جوابه محذوف ، وقال الزمخشري : تقديره ليهدم من الله ...) (٥٣) .

والتقدير خارج النص القرآني : وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا الْقَمَرُ ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا النَّهَارُ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا النَّهَارُ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ...

حادي عشر : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الليل)

توسطت سورة (الليل) سورتي : (الشمس) و

(الضحى) ، وقد افتتحت بقوله تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا

يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى - الليل ١ - ٤) ، وقد تكررت

(إذا) بعد (القسم) فيها بواو العطف ، ولهذا

التكرار توجيه وجه به النحاة ؛ فـ (إذا) تكررت

الواو بعد واو القسم ... فمذهب الخليل وسيبويه

أن المتكررة واو العطف ... والقسم شيء واحد ،

والمقسم به ثلاثة ، والقسم هو الطالب للجواب ،

لا المقسم به ، فيكفيه جواب واحد ، فكأنه قال :

أقسم بالليل والنهار وما خلق الله : إن سعيكم

لشئ ، أي أقسم بهذه الثلاثة أن الأمر كذا ... [و]

إن التقدير: وعظمة الليل إذا يغشى ، فالعامل في

الليل في الحقيقة هو العظمة المقدرة ، وكذا في : إذا

يغشى ، فيكون الواو قائماً مقام العظمة ، وهي

عامل واحد فيكون التقدير: بعظمة وقت الليل... (٥٤) .

(فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً

لسلطان الليل والنهار ، فلولا طلوعها لبطل أمر

العالم كله فكيف كان الناس يسعون في معاشهم

(٥٣) أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها ٤١٥ .

(٥٤) شرح الرضي ٦/٥٧ - ٥٨ .

ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ... بل جعله أحكم الحاكمين سَكَنًا ولباسًا كما جعل النهار ضياء ومعاشًا ولولا الليل وبرده لاحتقرت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه ويغيب في وقت استغنائهم عنه فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه ، فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدًا إلى يوم القيامة ، والليل سرمدًا إلى يوم القيامة، لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده ؛ وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من مصالح الخلق)^(٥٥) ؛ فظواهر استمرار الحياة محسوسة، وحاجة البشر إلى تتبعها وتنوعها أكيدة .

ولو وازنا بين ما في هذه السورة وسورة الشمس السابقة لوجدنا التجانس والتوافق والترابط النصي بين السورتين اللتين افتتحتا بالقسم بغشيان الليل وظلمته ، وجلو النهار وظهوره على الأرض :

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا - الشمس ٤) : (والليل إذا يغشى - الليل ١).

(وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى - الشمس ٣) : (والنهار إذا تجلَّى - الليل ٢) .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا - الشمس ١١) : (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى - الليل ١٥).

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا - الليل ٩) : (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ

يَتَزَكَّى - الليل ١٨).

وكان ترتيب تقدم الليل على النهار في القرآن الكريم سوى موضعين ، لشرف الليل على رأيي ، وتقدمه وانسلاخ النهار منه على رأي آخر ، (وَأَيُّ لَهْمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ - يس ٣٧) ، وقد تقدم الليل على النهار في هذه السورة فيما تقدم النهار وتأخر الليل في سورة الشمس ، قال ابن عاشور: (وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار عكس ما في سورة الشمس ، لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدّة ، وهي سادسة السور وأيامئذ كان الكفر مخيمًا ، على الناس إلا قليلاً ، وقد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار)^(٥٦) .

ومن الانسجام داخل السورة في مناسبة تكرار اليمين ما أشار إليه ابن عاشور أيضًا في قوله: (وفي مناسبة المُقَسِّمِ به للمُقَسِّمِ عليه أن سعي الناس منه خير ومنه شرٌّ وهما يماثلان النور والظلمة ... واختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة)^(٥٧) .

فيما ارتبطت (سورة الليل) نفسها بالسورة التي بعدها ارتباطًا نصيًا ، إذ اختتمت هذه السورة بقوله تعالى : (ولسوف يرضى) ، أمّا في (سورة الضحى) فتأتي الآية الخامسة لتخاطب النبي ص : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، وقد تقدم (الضحى) الدال على النهار مثلما تقدم في سورة الشمس ، ما يدل على البشارة والتفاؤل مثلما سنعرض في المبحث الآتي .

^(٥٦) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٣٤ .

^(٥٧) المصدر نفسه .

^(٥٥) م . س ١٠٥ - ١٠٦ .

أَمَّا التَّقْدِيرُ خَارِجَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ فَهُوَ : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى النَّهَارُ ... إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى .

ثاني عشر: (إذا) بعد (القسم) في سورة (الضحى)
أقسم جلّ وعلا بالضدّين مثلما أقسم في السورة السابقة وغيرها ، أقسم بالضحى وقت انبثاق نور الشمس ، وبالليل في سجوه وهدوئه ، في قوله تعالى : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى - الضحى ١ - ٣) ، أقسم بنور النهار^(٥٨) ، أي بالمدرک المحسوس لظاهر ما يجري بالحياة ، لأجل أن يتفكّر المتلقّي في المدلول المعنويّ ، فدلالة الضحى الباعث على الحركة والنشاط ، و(اللَّيْلِ) الداعي للراحة والسبات ، إذ إنّ خالق الظواهر هو خالق هذا التعاقب والتقابل ، وخالق ضوء النهار وظلمة الليل في يوم المخاطبين الواحد، إذ أقسم سبحانه بهاتين الآيتين لأنهما من آياته الكبرى . فالقسم (بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه ، وأيضاً فإنّ فائق ظلمة الليل عن ضوء النهار ، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحسّ وهذان للعقل... فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها، ونفى سبحانه أن يكون ودّع نبيه أو قلاه ، فالتوديع: الترك ، والقلي: البغض، فما تركه منذ اعتنى به، وأكرمه ولا أبغضه منذ أحبه ، وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعمُّ كل حالة يرقيه إليها ، هي خير له مما قبلها، كما أنّ الدار الآخرة خير له مما قبلها ، ثم وعده بما تقر به عينه وتفرح به نفسه ، وينشرح

به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الاتباع ، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه في موقف القيامة ، وما يعطيه في الجنة^(٥٩) .

أمّا دلالة البدء بالضحى فللبشارة والتفاؤل بقريته (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى - الضحى ٥) ، ذلك كلفه لإبطال دعوى المشركين أنّ الوحي انقطع عن النبيّ ص ، والقسم لتأكيد الخبر ردّاً لهذا الزعم^(٦٠) . (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى - الضحى ٥) ، عطف على جملة القسم ، وسوف للاستقبال ، وفيها تناصّ مع آية سورة الليل (ولسوف يرضى) مثلما عرضنا سابقاً . والتقدير خارج النصّ القرآنيّ : وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى اللَّيْلُ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ .

الخاتمة

يُرَادُ بِتَرْكِيْبِ (إِذَا بَعْدَ الْقِسْمِ) - فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - تَأْمَلُ انْتِظَامَ ظَوَاهِرِ دَوْرَانِ الْفَلَكِ وَسَيْرَانَ نَجْوَمِهِ حَتَّى يَبْلُغَ غَايَاتِهِ الْمَقْدَّرَةَ لَهُ ، وَكَانَ مَسَاقَ آيَاتِ هَذَا التَّرْكِيبِ مُوَاجَهَةَ الْمَكَابِرِينَ الَّذِينَ لَا يُسَلِّمُونَ لِلْحُجَجِ وَالْبِرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَتَوَاصَلَ مَنَازِرَتَهُمْ عَلَى مَنَوَالِهَا ، فَيَتَرَجَّحُ الْقِسْمُ لِعَدَمِ فَائِدَةِ الدَّلِيلِ مَعَ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ؛ وَوُضِعَتْ هَذِهِ التَّرْكِيبُ الْإِنْشَائِيَّةُ تَعْظِيمَ الْمَقْسَمِ بِهِ الْمُؤَلِّفِ مِنْ مَنظُورَاتِ مَحْسُوسَةٍ مَعْرُوفَةٍ ، تَوَمَّى إِلَى مَعَانِ مَدْرَكَةِ تَتَّصِلُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ الَّتِي يَحَاوِلُ الْمُعَانِدُونَ تَجَاهُلَ وَجُودِهَا الْمُرْتَبِطَ بِمَدْبَرِهَا جَلِّ وَعَلَا .

وَكَانَ مَجْمُوعُ مَا تَكَرَّرَ مِنْ هَذَا التَّرْكِيبِ : ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَأَكْثَرَهَا تَكَرَّرًا : (وَاللَّيْلِ إِذَا ...) : سِتِّ

^(٥٩) التبيان في أقسام القرآن ٤٧ .

^(٦٠) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٤٨ .

^(٥٨) مجمع البيان ١٠ / ٦٤٤ .

المصادر

- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تح أحمد بن علي، القاهرة، ٢٠٠٤.
- إحصاء العلوم، للفارابي، تح عثمان أمين، القاهرة، ١٩٦٨.
- ارتشاف الضرب لأبي حيان، تح د رجب عثمان، القاهرة، ١٩٩٨.
- أساليب القسم في اللغة العربية، كاظم فتحي الراوي، بغداد، ١٩٧٧.
- أسرار الآيات، صدر الدين الشيرازي، ١٤٠٢ هـ.
- أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها، لمحمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، تح أبي عبد الله بن العدوي، المنصورة، ٢٠٠٧.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، لابن خالويه، دار الكتب المصرية، ١٩٤١.
- الأقسام في القرآن الكريم، جعفر السبحاني، قم، ١٤٢٠ هـ.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، د ط، د ت.
- البحر المحيط، لأبي حيان، الرياض، د. ت.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ١٩٥٧.
- التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية، دار الفكر، د. ت.
- التحرير والتنوير، لابن عاشور، بيروت، ٢٠٠٠.
- تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، د. محمد باقر، ترجمة علي عباس الموسوي، بيروت، ٢٠١٤.
- ترتيب كتاب العين، تح المخزومي والسامرائي، قم، ١٤١٤.
- التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الفارسي، تح د. عوض القوزي، الرياض، ١٩٩٢.

مرّات، فيما تكرّر كلُّ من الصبح والقمر والنهار مرّتين:

(والصبح إذا أسفر)، (والصبح إذا تنفّس).
(والقمر إذا اتّسق)، (والقمر إذا تّلاها).
(والنهار إذا جلاها)، (والنهار إذا تجلّى).
وأما النجم فلم يكن إلاّ لمرة واحدة: (والنجم إذا هوى).

وانتظم تكرار (والليل إذا... بصيغ الماضي ثلاث مرّات:

(والليل) إذا أدر، (والليل) إذا سجي، (والليل) إذا عسعس.

وثلاث مرّات بصيغ المضارع:

(والليل) إذا يسر، (والليل) إذا يغشى، (والليل) إذا يغشاها.

وتبيّن أنّ وقت غشيان الليل تكرّر مرتين بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئاً بعد شيء، فيكون قد أقسم بانصرام الليل ومجيء النهار عقبيهما وكلاهما من آيات ربوبيته^(٦١).

وأخيراً: نرجّح أنّ (إذا) بعد القسم باقية على شرطيتها، استناداً إلى ربطها بمجموع نصوص ما وردت فيه، وما أضفته من معانٍ، وما أظهرته من حقائق كونية، متجاوزين ما قرره - نحاة الجملة - ومعتدين على ما تتيحه الدراسة النصّية - (تقدير جواب الشرط أقسم بهذه الآيات التي يتجدّد ظهورها كلّ حين أمام أعينكم آيات الله الدالة على كمال قدرته، فإنّ ما يصنعه البشر ممّا وصل الغاية في الدقّة لا يلبث أن يخلق ويبيلى، ولكن آيات الله التي مضى عليها الزمن تتجدّد كما هي، وسوف تبقى كذلك حتى يقوم الناس لربّ العالمين)^(٦٢)...

^(٦١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم ٣٥.

^(٦٢) أساليب القسم في اللغة العربية ٥١٩.

- تفسير أبي السعود ، بيروت ، د . ت .
- التفسير البياني ، د عائشة عبد الرحمن ، مصر ، ١٩٧٧ .
- تفسير كنز الدقائق ، محمد رضا القمي ، طهران ، ١٩٩١ .
- جامع البيان للطبري ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- الجنى الداني للمرادي ، تح د . فخر الدين قباوة ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- الدر المصون ، للسمن الحلبي ، تح د . زكريا عبد المجيد ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ، تح د . عبد العال سالم مكرم القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- شرح المفصل لابن يعيش ، تح د أميل بديع يعقوب بيروت ، ٢٠٠١ .
- شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٤ .
- الشرط والاستفهام في الأساليب العربيّة ، الدكتور سمير ستيتيّة ، د . ت .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للعيني ، بيروت ، د ت
- فتح القدير للشوكاني ، عالم الكتب ، د . ت .
- كتاب سيبويه ، تح عبد السلام هارون ، ط ٣ ، عالم الكتب ، ١٩٨٣ .
- الكشف عن حقائق التنزيل ، للزمخشري ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- الكليات ، للكفوي ، تح د عدنان دروش ، ومحمد المصري ، قم ، ١٤٣٣ .
- مجمع البيان ، للطبرسي ، بيروت ، د . ت .
- مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ، د . مهدي صالح سلطان ، بغداد ، ٢٠١٣ .
- معاني القرآن ، للفرّاء ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تح عبد السلام هارون بيروت ، د ت .
- مغني اللبيب ، لابن هشام ، تح د . مازن المبارك ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- مفتاح العلوم للسكاكي ، تح أكرم عثمان يوسف ، بغداد ، ١٩٨١ .
- الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ، بيروت ٢٠٠٦ .
- نحو النصّ بين الأصالة والحداثة ، د أحمد محمد عبد الرازي ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .
- الوسائط اللغوية ، محمد الأوراغي ، الرباط ، ٢٠٠١ .